﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما وَصف الله تقوى قلوبِهم باطنًا، ومَدَحَ المُتّقين بالتّزكية الإيمانيّة؛ تابعَ الوصفَ لهؤلاءِ المتّقينَ مبيّنًا الصّفات التي استحقّوا بها تلكَ الدّرجاتِ؛ فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾، وبيَّن أدبَ مقالِهم ظاهرًا، وصف أحوالَ أنفسِهم ليتطابق ظاهرُ أمرهم بمتوسّطه وباطنه، ووجْهُ النّظمِ أنّه مدحَ المؤمنينَ وأثنى عليهم، ثمَّ بيَّن أنَّ دلائلَ الإيمان ظاهرةٌ جليّةٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: القُنوتُ الطّاعةُ، وما يترتّب عليها من انقيادٍ وخُضوعٍ ونحو ذلك، وقَنَتَتِ المرأة لزوجها: أطاعته، والقُنوت: الخُشوع، والقانت: القائم بجميع أمر الله تعالى، وقانتٌ لله: مطيع خاشع، فالقُنوت: خُشوع وإقرار بالعبودية وقِيامٌ بالطّاعة[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فصَّلَ اللهُ تعالى خِصال التَّقْوى، فالآيةُ تَعدادٌ لصِفات الذين اتّقَوا، وهم الذين تتوافر فيهم هذه الصِّفاتُ جميعًا: الصَّابِرينَ في أداء الطّاعات وعلى ترك المحظورات وعند المِحَنِ والشدائد، والصَّادِقِينَ في الأقوال والأفعال والنِّيَّات، والقانِتينَ المُقيمين على الطّاعات، المواظبين عليها، والمُنفِقين ما تيسَّر على من تيسَّر بشروطه ومَصارفه وُجوبًا ونَدْبًا، والمُستغفِرين في السَّحَر وهو سدسُ اللّيل الأخير قبلَ طُلوع الفجر، وخُصَّ هذا الوقتُ لأنّهم كانوا يُقدّمون قيامَ الليل حتّى إذا كان السّحرُ أخذوا في الدّعاء والاستغفار[3]. وللاستغفار بالأسحار آثارُه وأنواره؛ إذ السَّحر وقتُ النّوم والغَفلة[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/281، أبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قنت).
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/343.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/41.

وتتفاوتُ درجاتُ المتَّصفين بهذه الأوصاف، فمنهم مَن فاقَ الصّبرُ عنده غيرَها، فسُمّوا بالصّابرين، ومنهم من كان الصّدقُ سِمَةً بارزة له؛ فسُمّوا بالصّادقين، وهكذا. فذَكر خمسًا من الصّفات العالية لأهلِ التَّقْوى، واكتفى بها عمَّا سواها؛ لأنّها تَجمع الخيرَ كلّه، ثمّ إنّها تتشعّب منها صِفاتٌ كثيرة فتشمَل كلَّ صِفات الخير.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ الصِّفاتِ المذكورةِ دونَ غيرِها بالذِّكر:

ذِكْـــرُ أصـــولِ فضائلِ صفاتِ أهلِ الإيمان

ذُكرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، أصولُ صفاتِ أهلِ الإيمانِ، فالصّبرُ مِلاكُ فعلِ الطّاعات وتركِ المعاصي، والصِّدقُ مِلاكُ الاستقامة وبثِّ الثِّقة بين أفراد الأمة، والقُنوت ملازَمةُ العباداتِ في أوقاتها وإتقانُها، وهو عبادةٌ نفسيّة جسديّة، والإنفاقُ أصل قيامِ الأمّة بكِفاية حاجة المحتاجين، والاستغفار بالأسحار الدّعاء والصّلاة المشتمِلة عليه في أواخر اللّيل، والغرضُ من ذكرِها هو بيانُ ما داومَ عليه أولئك المتَّقون من الأعمالِ الصَّالحة، فكانوا متَّقين مقبولًا دعاؤُهم.

نكتةُ تقييدِ الاستغفار بوقتٍ دون غيرِه من الصِّفات:

مَن استغفرَ اللهَ أوّلَ يومِه كان أبعدَ عن كلاليبِ الشَّهوات

جاءتْ الصِّفاتُ مطلقةً من القيودِ في قولِه تعالى: في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾، فلم يقُل: الصَّابرين على الشَّدائد، والصَّادقين في أقوالِهم، والقانتين في اللَّيلِ، والمنفقين من أموالِهم، وذلك أنَّ الصَّبرَ بابُه واسعٌ، ومثله بقيَّة الصِّفات، بخلافِ الاستغفارِ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، فقُيِّدَ بوقتِ الأسحارِ؛ وذلك لأنّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا لما في ذلك الوقتِ من هدوءِ النّفوس، وصفاءِ السَّرائر، والتَّجرُّدِ عن الشّواغل، ولدلالته على

اهتمام صاحبِه بأمر آخرتِه[1]، ولأنَّ من يبدأُ يومَه باستغفارٍ كان أبعدَ عن مطالبِ الشُّبهات وكلاليبِ الشَّهوات.

بلاغة دخول الواو على الصِّفات المتعدِّدةِ لموصوفٍ واحدٍ:

تنزيلُ تعدُّدِ الصِّفات منزلةَ تعدُّدِ الذَّوات

دخلتِ الواوُ بين الصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ لقطعِها عن الوصفيّة، مع أنّها صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ في اللّفظ متعدِّدٍ في المعنى تفخيمًا للموصوفِ، وإيذانًا باستقلالِ مدحِ كلِّ صفةٍ لموصوفها، ودلالةً على انفرادِهم بأنواع الكمالات، أو إشارةً إلى أنّ كلَّ واحدٍ منها يكفي في استحقاقِ المدحِ والثَّوابِ، وفي هذا إشارةٌ إلى كمال الموصوف في كلِّ صفةٍ منها، وإيذانٌ بأنّه منهم صابرٌ ومنهم صادقٌ، وهكذا جميع الصّفات، والمعنى أنّهم الجامعون لتلك الصّفات، ولتبايُنِ كلِّ صفةٍ عن الأخرى؛ إذ ليست كلُّها في معنًى واحدٍ، فينزَّل تغايُرُ الصّفاتِ وتبايُنُها منزلةَ تغايُرِ الذّواتِ، فكأنَّ كلَّ صفةٍ هي لموصوفٍ قائمٍ بذاتِه.

وجامِعُ ما ذَكره العلماء أنّ ذلك من قَبيل التّوسُّع في وصف أفراد الأمّة الإسلامية؛ فهي قد اشتملت برجالها ونسائها على هذه الصفات الإنسانيّة النّادرة[2].

بلاغة إيثارِ صيغة اسمِ الفاعل في تعدادِ الأوصافِ:

مقامُ تحدُّثِ المؤمنِ عن نفسِه، يختلفُ عن مقامِ إخبارِ الله عنها

عبَّر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، بصيغة الماضي، بينما ذُكِرَت الأوصافُ بصيغةِ اسْمِ الفاعل في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾؛ فمايَزَ بين الموضعين، فلم يقل: ربّنا إنّنا مؤمنون، وفي ذلك بلاغةٌ تَكشِف عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/47، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

تناسُب الصيغة بالمعنى المستفاد منها، ففي ذكر الأوصاف بالاسميّة دلالةُ الثّبوتِ والرُّسوخ والتّكرار؛ فلا يوصف أحدُهم بواحدة من هذه الصّفات إلّا إن كانت هي دأبَه ومَحطَّ اهتمامِه ونشاطه، فهي صفةٌ راسخة فيه، فجاء الوصف بصيغة اسم الفاعل، أمّا ذكره الإيمانَ بصيغة الفعل ففيه دلالةُ الارتباط بالزّمن لتستدعيَ التّجدُّدَ والاستمرار[1]، بالإضافةِ إلى أنَّ ذكرَ الإيمانِ هو في حالِ صدورِه عنهم، وأمَّا بقيَّةُ الصِّفات فهي باعتبارِها إخبارًا من اللّه تعالى.

سرُّ الجمعِ بين طلبِ المغفرةِ والاستغفار بالأسحار:

التَّخلية قبل التَّحلية

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ الجمعِ بينَ طلبِ المغفرةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، والإخبارِ عن الاستغفارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، وذلك أنَّه لمّا رتّبُوا طلبَ المغفرَةِ على الإيمان وهو أصلُ التّقوَى، أخبَرَ عنهُم أنَّهُم مستغفرون بالأسحار؛ إذ لا يَرون اتِّصَافَهُم بهذه الأوصاف الشَّريفة مِمَّا يُسقِطُ عنهم طلبَ المغفرةِ، فهم يستغفرون ابتداءً على الدَّوام، ويطلبون المغفرةَ انتهاءً إن وقعتْ منهم ذنوبٌ، وهذا من التَّخليةِ قبل التَّحلية.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾:

معنى الباء الرئيسُ هو الإلصاقُ، وما ذُكر لها من معانٍ أخرَ تَحمل هذا المعنى، فهو لا يُفارقها[2]، فالاستغفارُ عند تلك الفئةِ ملتصقٌ بالأسحار فكأنّهم لا يُفَوِّتون سحَرًا من اللَّيالي إلّا وكانوا فيه من المستغفرين، وما داموا مُداومين على هذه الصِّفةِ فهم فيها مستغفرون.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 25/29.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/217، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/17.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»